(الأداة) في النحو العربيّ .. المفهوم والمصطلح

د. عامر فائل محمد بلحاف

***أستاذ اللغة والنحو المشارك – كلية العلوم والآداب بشرورة**

جامعة نجران

المملكة العربية السعودية

amer.fael@yahoo.com

00966 -535942539

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

مقدمـة :

تحمل هذه الدراسة عنوان (الأداة في النحو العربي .. المفهوم والمصطلح) ، وهي تحاول أن تسلّط الضوء على مصطلحٍ نحويٍّ عربي أثار جدلاً واسعًا بين الباحثين قديمًا وحديثًا ، بين منكرٍ لوجوده ومعارضٍ لاستعماله ، وبين مؤيدٍ لحضوره ومتحمسًا لتوظيفه .

قُدِّم لهذه الدراسة بتوطئة مقتضبة تحدثت عن المعنيين اللغوي والاصطلاحي لـ (الأداة) في المعاجم العربية القديمة ، والمعاجم اللغوية الحديثة ، ثم توزعت الدراسة بعد ذلك على ثلاثة مباحث : مبحث خاص بتراث الأدوات في العربية ، وثانٍ للمفهوم ، وثالث للمصطلح .

كان لزامًا على الدراسة في مبحثها الأول أن تقدّم عرضًا لتراث العربية في الأدوات سواء أكان هذا التراث في المؤلفات القرآنية والنحوية العامة ، أو في المؤلفات المتخصصة في الحروف والأدوات . وفي المبحث الثاني تعقّبت الدراسة مفهوم الأداة من التشكّل إلى الاستقرار ، فكان فيه حديث عن المفهوم في ميزان علم المصطلح ، وتشكل مفهوم الأداة عند المتقدمين من العلماء ، فاستقرار المفهوم ، لينتهي بمفهوم الأداة في الكتب المتخصصة . وخُصّص المبحث الثالث للحديث عن المصطلح من حيث الأولية والأحقية ؛ أي من حيث : أول من أطلقه واستعمله ، ومن هو الأحق به ؟ فكان فيه حديث عن استخدام نحاة العرب له من بصريين وكوفيين على حدّ سواء ، وحديث آخر عن ورود المصطلح لدى فلاسفة اليونان .

وقد حرصت الدراسة في مواضع مختلفة من مباحثها على الإفادة من مختلف الاتجاهات النحوية القديمة والمعاصرة، كماحاولت تطبيق المنهج الوصفي القائم على التحليل ، وختمت بالنتائج التي توصلت إليها ، وبثبتٍ للمصادر التي أفادت منها .

توطئـة :

يشيع في الدرس النحوي استعمال مصطلح (الأداة) الذي يقابل الباحث والمتعلم على ـدّ سواء في كثير من المظان النحوية . وقد شغل هذا المصطلح المهتمين قديمًا و ـديثًا ، وبقدر انشغالهم كان جدلهم ؛ فمن معارضٍ لاستعمال المصطلح ومنكر لوجوده بأنْ لا أصل له في العربية ، ومن مؤيدٍ لا يرى في استعماله بـ سًا أو مشكلة .

يشير مصطلح (الأداة) لغةً – عند إطلاقه – إلى الآلة التي يستعملها رب الحرفة ـي عمـه ، ـن ـا عٍ ومزارعٍ ، و جارٍ ، وخياط ، فيقال : أداة النجارة ، وأداة

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الخياطة . وقد يُطلق على هذه الأداة اسم : الآلة ، فيقال : آلة النجارة ، وآلة الخياطة . جاء في القاموس : " والأداة : الآلة . جمع أدوات " [i]. وجاء في اللسان : " ألف الأداة واوٌ ، لأنّ جمعها أدوات . و لكل ذي حرفة أداة ، وهي آلته التي تقيم حرفته ... "[ii].

أمّا في الاصطلاح [iii] ، فقد عرّف جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ) الأدوات بقوله : " الحروف وما شاكلها من الأسماء ، والأفعال ، والظروف " [iv] ، ولم يرد هذا التعريف في مؤلفاته النحوية ، بل ورد في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) عند حديثه عن النوع الأربعين ، والخاص بمعرفة معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر . وقد ذكر التهانوي أنّ : " الأداة عند النحاة والمنطقيين هو الحرف المقابل للاسم والفعل " [v].

أمّا معاجم المصطلحات اللغوية الحديثة ، فيكتفي معظمها بذكر مصطلح (الأداة) مقرونًا بالمصطلح الأجنبي (Particle) ، وقد يزيد بعضها : " كلمة ذات وظيفة نحوية عادة ، ويُطلق عليها أيضًا اسم : كلمة وظيفية " [vi].

والحق أنّ مصطلح (الأداة) هذا يثير عدة تساؤلات ، لعلّ من أهمها تساؤلين اثنين ، هما :

1. ما مفهوم هذا المصطلح ؟ وما المقصود به على وجه التحديد ؟
2. من أين جاء هذا المصطلح ؟ ومن أول من أطلقه واستعمله ؟

لذا سنحاول الإجابة عن هذين التساؤلين من خلال تتبع (الأداة) مفهومًا ومصطلحًا في التراث العربي ، غير أنّ الأمر يقتضي الحديث أولاً عن تراث العربية في الأدوات .

المبحث الأول : الأداة في تراث العربية:

الأدوات قسمٌ من أقسام الكلام ، وضرورة من ضرورات ربطه وتحقيق الانسجام فيه . وقد حظيت منذ القدم بعناية العلماء واهتمامهم . وعندما نبحث في تراث العربية من الأدوات ، سيقودنا هذا البحث إلى تصنيف ذلك التراث إلى قسمين : الأول : يختص بالمؤلفات القرآنية و النحوية العامة ، التي لم تقتصر على الأدوات فقط ، بل عالجتها ضمن الموضوعات القرآنية والنحوية . والثاني : المؤلفات المتخصصة في الحروف والأدوات . وسأعطي في الصفحات التالية لمحة موجزة عن القسمين ، لا بقصد الإحاطة ، بل لرسم مخطط عام عنها .

المطلب الأول : الأدوات في المؤلفات القرآنية والنحوية العامة :

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ـصّ بعـض علمـاء التفسـير الأدواتِ النحويـة باهتمـام كبيـر ، وصـارت هـذه الأدوات ومعانيها مادة خصبة تحفل بها كتبهم و مؤلفاتهم . وقد مثلت الكتب الأولى في هذا المجال الباكورة الأولى لنشوء علم الأدوات . ومن أشهر هذه المؤلفات :

1. معاني القرآن للفـراء (ت 207 هـ) .
2. مجاز القرآن لأبي عبيدة (ت 210 هـ تقريبًا) .
3. معاني القرآن للأخفش (ت 215 أو 221 هـ) .
4. جامع البيان للطبري (ت 310 هـ) .
5. الكشـاف للزمخشري (ت 538 هـ) .
6. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت 671 هـ) .
7. أنـوار التنـزيل للبيضـاوي (ت 685 هـ) .
8. البحـر المحيـط لأبي حيّـان (ت 745 هـ) .
9. البرهان في علوم القرآن للزركشي (ت 794هـ) .
10. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (ت 911 هـ) .

إنّ جميع هذه المؤلفات مطبوعٌ ومحـ قٌ ، وهي متداولة بيـن أيـدي النـاس . وقد تنـاول مؤلفوها عددًا من الأدوات ، وفسروا معنـى كل منهـا ، وبينـوا الأوجـه المتعددة ، ومـا يترتب على كل معنى ووجه من حكم شرعي .

وفـي المسـار ذاتـه سـارت المؤلفـات النحويـة ، وممّـا سـاعد علـى ذلـك أنّ العلمـاء المتقدمين كانوا ممّن يجمع بين أكثر من علم وفن ، فترى الواحد فيهم ضـليعًا بـالنحو ، والتفسير ، والفقه والكلام .

عالـج النحـاة موضوع (الأدوات) في مؤلفاتـهم ، وتناولوها بالتفسيـر والإيضـاح كـما يظهـر عنـد سيبـويه في (الكتاب) ، والمبـرّد في (المقتضـب) ، وابـن السـراج فـي (الأصـول) . وجـاء بعدهم من نقل عنهم هذه الأدوات ، لكنّـه نقلها هذه المرة محملة باختلافات شتى ، يصعد بعضها للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) ، وتنسـب جلهـا لنحـاة البصـرة والكوفـة . وأشـهر هـذه الكتـب – علـى سـبيل التمثيـل لا الحصر – أمهات الكتب النحوية ، ومنها :

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

1. الكتاب لسيبويه (ت 185 هـ) .
2. المقتضب للمبرّد (ت 282 هـ) .
3. الأصول في النحو لابن السرّاج (ت 316 هـ) .
4. سر صناعة الإعراب لابن جني (ت 392 هـ) .
5. الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس (ت 395 هـ) .
6. الأمالي لابن الشجري (ت 542 هـ) .
7. شرح المفصل لابن يعيش (ت 643 هـ) .
8. شرح التسهيل لابن مالك الأندلسي (ت 672 هـ) .
9. شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (ت 686 هـ) .
10. همع الهوامع للسيوطي (ت 911 هـ) .

فهذه المؤلفات المطبوعة وغيرها ، تدرس الأدوات النحوية ، كلاً ضمن الباب النحوي الخاص به .

المطلب الثاني : المؤلفات المتخصصة في الحروف والأدوات :

تطالعنا المعاجم وكتب التراجم بعددٍ من الكتب المفقودة التي لم تصل إلينا في الحروف والأدوات ، وينسب بعض هذه المؤلفات لعلماء متقدمين عاشوا في المراحل الأولى لتشكل المذاهب النحوية ، ممّا يعني أنّ هذا المجال من الدراسة كان قد حظي باهتمام العلماء منذ وقت مبكر . ومن هذه المؤلفات :

1. الحروف لعلي بن حمزة الكسائي (ت 189 هـ) [vii] .
2. الحروف في معاني القرآن إلى سورة طه لمحمد بن يزيد المبرّد (ت 282 هـ)[viii].
3. الحروف من الأصول في الأضداد للحسن بن بشر الآمدي (ت 370 هـ) [ix].
4. الأدوات لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت 380 هـ) [x] .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

5. الهـــادي فــي الـحـروف والأدوات للـميـداني (ت 518 هـ) [xi].

6. الأدوات في النحو لابن حُميدة النحوي محمد بن علي بن أحمد (ت 550 هـ) [xii].

7. الحـروف لعيسى بـن عـمـر الهمـذاني الكـوفـي [xiii] .

إنّ هذا التراث المفقود من كتب الأدوات يصعد بعضه لعلماء متقدمين كالكسائي ، ويشير بعضه إلى استخدام مصطلح (الأدوات) ، غير أنّه لا يُمكّننا التنبؤ بمفهومه ، وبمقصود المؤلف منه . كما يجمع بعضه بين مصطلحي (الحرف) و (الأداة) ، كما فعل الميداني ، ممّا يعني أنّه وجد فرقًا بينهما ، إذ لا مبرر لسوقهما على سبيل الترادف .

والحق أنني وإنْ كنتُ لا أملك أي معلومات عن هذه المؤلفات المفقودة ، فقد آثرتُ إيرادها ، ولو على سبيل الذكر فقط ، إذ قد ينقشع غبار الزمن عنها وتظهر ، كما ظهرت بعض المؤلفات التي كان يُظن أنّها من التراث المفقود الذي لم يصل .

أمّا كتب الحروف والأدوات التي وصلت إلينا ، فمعظمها مطبوعٌ ، محـق ، متداول بين الدارسين والباحثين ، من أشهرها :

1. حروف المعاني للزجاجي (ت 340 هـ) .
2. كتاب اللامات للزجاجي أيضـًا .
3. منازل الحروف للرماني (ت 388 هـ) .
4. معاني الحروف للرماني أيضـًا .
5. الأزهية في علم الحروف للهـروي (ت 415 هـ) .
6. رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي (ت 702 هـ) .
7. الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي (ت 749 هـ) .
8. معاني الأدوات والحروف لابن قيم الجوزية (ت 751 هـ) . [xiv]
9. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري (ت 761 هـ) .
10. مصابيح المغاني في حروف المعاني للموزَعي (ت 825 هـ) .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ومن المفيد أن نثبتَ هنا أنّ بعض المؤلفات في التراث العربي قد تحمل اسم (الحروف) ، غير أنّها تبتعد في طرحها عن مفهوم (الحرف) أو (الأداة) الذي بصدده الدراسة . ومن هذه المؤلفات (ثلاثة كتب في الحروف) حققها الدكتور / رمضان عبد التواب ، يُنسب أولها للخليل بن أحمد الفراهيدي (175 هـ) ، والثاني لابن السّكيت (ت 244 هـ) ، والثالث لأحمد بن محمد الرازي (ت 643 هـ تقريبًا) . فكتاب الخليل يسير على هذا النحو : " التاء : البقرة التي تحلب دائمًا ... الثاء : العين من كل شيء .... الجيم : الجمل القوي .... الحاء : المرأة السليطة ، ... " [xv] . وهكذا . فطرح الخليل في هذا الكتاب طرحٌ معجمي ، لا علاقة له بمفهوم الحرف الاصطلاح النحوي .

أمّا كتاب ابن السّكّيت (الحروف) فهو خاصٌ بالكلمات التي يُتكلّم بها في غير موضعها أي أنّ كلمة (الحروف) لديه ترادف (الكلمات) ، واستعمال (الحرف) بمعنى (الكلمة) اسمًا كانت ، أو فعلاً ، أو حرفًا كان شائعًا لدى القدماء ، لعلّ في مقدمتهم سيبويه . يقول ابن السكيت : " يقال : جاء حافيًا مشقق الأظلاف ، إذا جاء مشقق القدمين ، وإنّما الأظلاف للشاء والبقر ..... " [xvi] . ويقول في موضع آخر : " ويقال للرجل : إنّه لغليظ المشافر ، وإنّه لغليظ الجحافل ، وإنّما المشافر للإبل ، والجحافل لذوات الحوافر .... " [xvii] . ولابن السكيت كتابٌ آخر هو (حروف الممدود والمقصور) [xviii]، وهو أيضًا في : الكلمات الممدودة والمقصورة.

أمّا كتاب الرازي فهو في : صفات الحروف ومخارجها ، والترتيب الأبجدي ، ونظم حروف المعجم ، وحروف المعجم في أوائل السور ، وغيرها . [xix]

المبحث الثاني : مفهوم الأداة ... التشكل والاستقرار :

مرّ مصطلح الأداة بمراحل أيسرُ ما توصف به أنّها طويلة ، حيث تشكّل المفهوم دالاً على شيء ما ، وتطور ليستقر على مفهوم أوسع من الذي بدأ به .

المطلب الأول : المفهوم في ميزان علم المصطلح :

يذهب معظم علماء المصطلح إلى أنّ اختيار مصطلح مناسب للتعبير عن مفهوم جديد ما يتم وفق مبادئ وأسس علمية منظمة ، إذ إنّ الأمر لا يجري اعتباطًا ، بل لا بدّ من " وجود علاقة مشابهة أو مشاركة بين المعنى اللغوي الذي وُضعت الكلمة للدلالة عليه في الأصل وبين المعنى الاصطلاحي الذي يراد تحميله لهذه الكلمة " [xx] .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

إنّ المعني اللغوي لمصطلح (الأداة) هو : الآلة ، والمفهوم الاصطلاحي له هو : الحرف وما تضمن معناه من الأسماء ، والأفعال ، والظروف . فهل ثمة مشابهة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي ؟ الإجابة : نعم ؛ ذلك لأنّ الآلة من الآلات تقوم عادة بعملٍ ما ، ويُتوصل بها إلى المراد . والأداة في الكلام ؛ حرفًا كانت ، أو اسمًا ، أو فعلاً تقوم بعملٍ أيضًا ، ويتوصل بها إلى عددٍ من الوظائف النحوية. وقد ألمح ابن فا س (ت 395 هـ) إلى هذه الفكرة في (مقاييس اللغة) عند حديثه عن الأداة ، فقال : " أدو : الهمزة والدال والواو كلمة واحدة . الأدو : كالختل والمراوغة . يقال : أدا يأدو أدوًا . وقال :

أدوتُ لــه خــذه فهيهاتَ الفتى حــذِرا [xxi]

وهذا شيءٌ مشتق من الأداة ، لأنّها تعمل أعمالاً ، حتى يوصل بها إلى المراد . وكذلك الختل والخدع يعملان أعمالاً . قال الخليل : الألف التي في (الأداة) لا شك أنّها واو ، لأنّ الجماع أدوات . ويقال : رجلٌ مُؤْدٍ : عامل " [xxii]. وفي قول ابن فارس هذا ملحوظتان :

الأولى : أسبقيته في الربط بين المفهوم والمصطلح من العلماء المعاصرين .

الثانية: ورود مصطلح (الأداة) على لسان الخليل بن أحمد (ت 175 هـ) .

ومن المبادئ التي تقوم عليها النظرية المصطلحية كذلك : الانطلاق من المفاهيم للوصول إلى المصطلحات ، لا العكس [xxiii]. وهذا المبدأ يقودنا إلى تساؤل مهم هو : هل كان مفهوم (الأداة) واضحًا عند المتقدمين من علماء العربية ؟ بمعنى آخر : هل كان مصطلح الأداة عندهم محددًا تحديدًا علميًا دقيقًا ، يمنع غيره من الدخول فيه ؟

إنّ الإجابة عن هذا التساؤل تستلزم منّا العودة إلى مؤلفات العلماء الذين صرحوا أو ألمحوا لمصطلح (الأداة) أو مفهومه .

المطلب الثاني : تشكّل مفهوم الأداة عند المتقدمين :

ورد هذا المصطلح مرة واحدة في كتاب سيبويه(ت 185 هـ) عند حديثه عن القَسَم حيث قال : " وللقسم والمقسم به أدواتٌ في حروف الجر ، وأكثرها الواو ثم الباء ، يدخلان على كل محلوف به . ثمّ التاء ، ولا تدخل إلاّ في واحد . وذلك قولك : الله لأفعلنّ ، وبـ لله لأفعلنّ ، وتالله لأكيدنّ أصنامكم ... " [xxiv].

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

إنّ قول سيبويه هذا صريحٌ في أنّه استعمل مصطلح (الأداة) ليشير به إلى مفهوم محدد هو (الحرف) ، وهو مصطلحٌ لا تدخل فيه عنده : الأسماء ، والأفعال ، والظروف .

وإذا ما تقدمنا قليلاً فسيقابلنا أبو زكريا الفراء (ت 207 هـ) رأس مدرسة الكوفة التي يَنسب لها بعض الباحثين مصطلح (الأداة)؛ قال الدكتور/مهدي المخزومي في كتابه (مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو): " وكان البصريون يسمونها حروف المعاني ... وكان الكوفيون يسمونها أدوات ... " [xxv].

والفرّاء – من بين الكوفيين - أوّل من جعل هذا المصطلح في مقابل حروف المعاني [xxvi] ، وهو يتردد في مواضع من كتابه بمعانٍ مختلفة ، منها :

- قال في (إنْ) من قوله تعالى: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) [xxvii]: " فقرأها القرّاء بالكسر ، ولو قرئت بفتح (أنْ) على معنى : إذ لم تؤمنوا ، ولأنْ لم تؤمنوا ، ومِن أنْ تؤمنوا لكان صوابًا ، وتأويل (أنْ) في مو ع نصب ، لأنَّها إنّما كانت أداةً بمنزلة (إذ)، فهي في موضع نصب إذا ألقيتَ الخافض، وتمّ ما قبلها .." [xxviii] .
- وقال في موضع آخر: "وأمّا الجحد فقوله :آ (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (29)ً[xxix] ، ولا تصلح هاهنا (نعم) أداة، وذلك أنّ الاستفهام يحتاج إلى جواب بـ (نعم) أو (لا) ما لم يكن فيه جحد ، فإذا دخل الجحد في الاستفهام ، لم يستقم أنْ تقول فيه (نعم) ، فتكون كأنّكَ مقرٌّ بالجحد ، وبالفعل الذي بعده .. " [xxx].

وإذا ما توقفنا عند هذين المثالين ، فسنجد أنّ مفهوم (الأداة) يشير في المثال الأول إلى (الحرف) من حروف المعاني ، بينما يشير في المثال الثاني إلى معنى آخر ، ربما يكون بعيدًا ، وهو (الجواب) ؛ فهو عندما يقول : " ولا تصلح هاهنا (نعم) أداة " يعني بلا شك : لا تصلح أن تكون جوابًا .

أمّا المبرّد (ت 282 هـ) فقد ذكر مصطلح (الأداة) في كتابه (المقتضب) في مواضع قليلة ، غير أنّ ما يهمنا هنا أنّه ألمح لمفهوم (الأداة) في موضعين ، دون ذكر المصطلح باللفظ . قال في باب المجازاة وحروفها : " وهي تدخل للشرط ، ومعنى الشرط وقوع الشيء لوقوع غيره. فمن عواملها من الظروف: أين ، ومتى ، وأنّى ، وحيثما . ومن الأسماء : مَنْ ، وما ، وأي ، ومهما . ومن الحروف التي جاءت لمعنى : إنْ ، وإذ ما . وإنّما اشتركتْ فيها الحروف ، والظروف ، والأسماء لاشتمال هذا المعنى على جميعها " [xxxi].

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

إنّ عوامل المجازاة عند المبرّد ظروفٌ ، وأسماءٌ ، وحروف جاءت لمعنى . وهذا الفهم نجده عند المتأخرين من علماء النحو ، غير أنّ المصطلح الذي شاع على ألسنتهم للتعبير عن هذا المفهوم كان (الأداة) لا (العوامل) . وهذا الفهم الذي تأتى للمبرّد يجعله – بحسب الدراسة– سبّاقًا لتجلية (الأداة) مفهومًا .

وعلى العكس من المبرّد، يظهر في مفهوم (الأداة) شيءٌ من الغموض عند الخوارزمي (ت 370 هـ) في كتابه (مفاتيح العلوم) ، حيث قال : " الحروف التي تجزم الأفعال المضارعة : لم ، ولمّا ، وألم ، وألمّا . وحروف الجزاء وهي : إنْ ، وما ، ومهما ، وإذ ما ، وحيثما ، ومَن ، وأنى ، وأين ، وأينما ، ومتى ، ومتى ما ، وكيف ، وكيفما " [xxxii] .

إنّ قول الخوارزمي هذا صريحٌ في عدِّ : مَن ، وأين ، ومتى ، وكيف ... نوعًا من الحروف ، والثابت أنّها أسماء ! فهل كان يجهل ذلك ؟!

ـا مِن شك في أنّه كان لا يجهل ذلك ، وربما التُمِس له العذر في أنّه كان يستعمل (الحرف) بمعنى (الكلمة) ، وهو استعمالٌ كان شائعًا لدى القدماء ، غير أنّ هذا الاستعمال أوقعه في مشكلة مصطلح ؛ حيث استعمل مصطلح (الحرف) ليدل به على مفهومين : الحروف ، كـ : لم ، ولمّا ، وإنْ ، وأسماء الشرط ، كـ : مَن ، ومهما ، ومتى ، وأين وكيف ، .... وبغموض المصطلح واضطرابه ، غمُض المفهوم واضطرب .

وعبّر الجليس الدينوري (ت 490 هـ) عن مفهوم (الأداة) ، فقال : " ومن الأسماء أسماءٌ تتضمن معاني الحروف . فمنها : أسماء الاستفهام ، وهي متـ ـمنة معنى همزة الاستفهام ، وجملتها تسعة ، وهي : مَن ، وما ، وأي ، وأين ، وأنّى وكيف ، وكم ، ومتى ، وأيان ... ومنها أسماء الشرط ، وهي متضمنة معنى (إنْ) الخفيفة وجملتها عشرة ، منها أربعة مجردة من الظرفية ، وهي : مَن ، وما ، وأي ، ومهما ، والباقية ظروف ، وهي : أينما ، وأنّى ، ومتى ، وحيث ، وإذما ، وإذاما " [xxxiii] .

المطلب الثالث : استقرار المفهوم :

يستقر مفهوم (الأداة) في القرن السابع الهجري ، ويصير دالاً على معنى محدد . ولعلّ أول من يقابلنا من علماء هذا القرن الشلوبين (ت 645 هـ) ، حيث يظهر مفهوم (الأداة) عنده واضحًا جليًا في كتابه (التوطئة) ، يقول : " الاستثناء في الأصل : إخراج بعض من كل بأداة من الأدوات المذكورة في هذا الباب . وأدواته من

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الحروف : إلاّ . ومن الأسماء : غير ، وسِوى ، وسَوى. ومن الأفعال : ليس، ولا يكون ، وخلا ، وعدا المقرونتان بـ (ما) في مذهب الأكثر " [xxxiv].

فالاستثناء عند الشلوبين إنما يكون بأداة من أدواته ، وهذه الأدوات قد تكون حرفًا كـ (إلاّ) ، أو اسمًا كـ (غير) ، أو فعلاً كـ (ليس) .

يظهر المفهوم واضحًا كذلك عند ابن مالك الأندلسي (ت 672 هـ) ، الذي قال في ألفيته :

واجزم بـ : إنْ ومَن وما ومهما أي متى أيّان أين إذ ما

وحيثما أنّى ، وحرف إذما كإن ، وباقي الأدوات اسما [xxxv]

وقد علّق الأشموني (ت 900 هـ) على نظم ابن مالك هذا بقوله : " فهذه إحدى عشرة أداة كلها تجزم فعلين .... "[xxxvi] . وما ذكره ابن مالك أولاً ، وما عق به الأشموني ثانيًا دليل على أنّ أدوات الشرط منها ما هو حرف ، ومنها ما هو اسم .

و الأداة بهذا المفهوم عند ابن مالك ترد في مؤلفات أخرى غير الخلاصة ، منها (شرح عمدة الحافظ) ، إذ يقول : " إذا تقدّم على أداة الشرط ما هو موافق للجواب في المعنى، استُغني به عن الجواب، كقوله تعالى :آ(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) [xxxvii] ويقول في موضع آخر قريب من الأول : " ويُستغنى أيضًا عن الجواب الذي تطلبه أداة الشرط بجواب قسم متقدم لفظًا ، كقوله تعالى :(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (109) [xxxviii] ، أو تقديرًا ، كقوله تعالى : أ(وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149) [xxxix].

والأمر ذاته عند أبي حيّان الأندلسي (ت 745 هـ) ، ففي باب المجزوم من كتابه (ارتشاف الضرب من لسان العرب) قال : " أدوات الشرط حروف وأسماء.. "[xl]. وقال : " وأدوات الشرط : وهي كلم وضعت لتعليق جملة بجملة ، وتكون الأولى سببًا والثانية متسببًا ، وذلك عند جمهور أصحابنا لا يكون لك إلاّ في المستقبل ، وهذه الكلم : حرف واسم ... " [xli] .

إنّ هذه الجولة في كتب المتقدمين تشي لنا بأنّ مفهوم (الأداة) كان قد تشكل عند الأوائل من العلماء ، كما رأينا عند المبرد، ثمّ أخذ بالاستقرار بدءًا من القرن السابع الهجري، كما رأينا عند الشلوبين ، وابن مالك. و في هذا ردٌّ على الباحث / محمود أحمد الصغير، الذي ذكر في خاتمة دراسته (الأدوات النحوية في كتب

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

التفسير) أنّ مفهوم (الأداة) عند المفسرين " لم يكن واضحًا أو مستقرًا، وأنّهم في ذلك لا يختلفون عن النحويين " [xlii] . فإن كان الباحث يقصد بـ (النحويين) الأوائلَ منهم ، فربما كان قوله هذا صائبًا ، أمّا إن كان يقصدهم بإطلاق ، ففي قوله هذا نظر ، لأنّا رأينا من النحويين المتأخرين مَن يجلي مفهوم (الأداة) تجليةً توضح جلاء الفكرة في ذهنه .

المطلب الرابع : المفهوم في كتب الأدوات :

إذا ما انتقلنا إلى الكتب التي اختصت بالأدوات ودراستها ، وحاولنا تتبع مفهوم (الأداة) فيها ، فسنخلص إلى نتيجة مفادها أنّ هذا المصطلح لم يكن ظاهرًا في الكتب المتقدمة ظهورًا لافتًا ، كما أنّ قليلاً منها عنى بدراسة الأداة الاسم والأداة الفعل ، واكتفى معظمها بدراسة الأداة الحرف ، أو ما عُرف عندهم بـ (حروف المعاني) .

فكتاب الزجاجي (ت 340 هـ) (حروف المعاني)[xliii]من الكتب التي تميّز بين الأداة الحرف والأداة الاسم عن طريق التمثيل ليس غير. أمّا كتابه الآخر (اللامات) [xliv]، فهو مختصٌ بالأداة الحرف، وهي (اللام)، مفردة أو مركبة مع غيرها كـ (لام) : لو و لولا .

والأمر ذاته ينطبق على الرماني(ت 388 هـ)، إذ يذكر في كتابه (معاني الحروف) [xlv] أنّ هذه الأداة تستعمل اسمًا وحرفًا ، مع إيلاء العناية للأداة الحرف. أمّا كتابه الآخر (منازل الحروف) فمختصٌ باللامات ، والألفات ، والهاءات ، ..... إلخ . وقد يُلمح في مواضع قليلة لأدوات تستعمل حرفًا تارة، واسمًا تارةً أخرى . وهو يسوق فيه مصطلح (الأداة) في موضع واحد ، هو: " وألف الأداة نحو : إنّ ، و أو ، وأم ، وما أشبه ذلك " [xlvi].

أمّا كتاب (الأزهية في علم الحروف) للهروي (ت 415 هـ) ، والمتقدم على سابقيه جمعًا وتأليفًا وتبويبًا ، فيطالعنا فيه مؤلفه بمصطلح (الأداة) في موضعين ليس غير ، وهو في الموضع الثاني يذكر عبارةً مهمةً في تجلية مفهوم (الأداة) ، حيث قال : " واعلم أنّ ألفات الوصل التي في أوائل الأسماء تُبتدأ كلها بالكسر إلاّ ألف لام التعريف ، وألف (ايمن الله) في قول البصريين ، فإنّها يُبدآن بالفتح ، ليُفرَّق بين دخولها على الاسم ، وبين دخولها على الحرف ، وما أشبه الحرف ، لأنّ الألف التي مع لام التعريف داخلة على حرف . وقولك : (ايمُ الله) لا يكون إلاّ في القسم فقط ، وهي أداة من أدوات القسم ، فأشبه الحروف وإن كان اسمًا لأنّه غير متمكن ، ولزم موضعًا واحدًا وهو القسم ، ففُتِحت ألفه كما فُتِحت ألف لام التعريف وألزموا آخره الرفع ، كما ألزموا آخر (لعمرُ الله) الرفع في القسم " [xlvii]. فالهروي

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

عندما قال : " وهي أداة من أدوات القسم فأشبه الحروف وإن كان اسمًا ... " يشي لنا بـأنّ أدوات القسم تضم الحروف والأسماء ، وقوله هذا يجعله من السابقين في تجلية مفهوم الأداة .

أمّا كتاب (رصف المباني في شرح حروف المعاني) للمالقي (ت 702 هـ) ، فيمثل مرحلة متقدمة في تجلية مفهوم الأداة ، مع الإشارة إلى المصطلح باللفظ . يقول المالقي : " اعلم أنّ (ما) في كلام العرب لفظٌ مشترك ، يقع تارةً اسمًا ، وتارةً حرفًا ، وذلك بحسب عود الضمير عليه وعدم عوده ، وقرينة الكلام . وحظنا من القسمين الحرفية ، وهي التي يكون معناها في غيرها .... " [xlviii] .

إنّ قول المالقي هذا صريحٌ في أنّ (ما) أداة ، قد تستعمل اسمًا ، وقد تستعمل حرفًا ، وأنّ كتابه يختص بدراسة الحروف دون الأسماء ، وقد صرّح بمصطلح (الأداة) في مواضع من كتابه منها :

- " وقولهم في ابتداء الكتب والرسائل : أمّا بعدُ فمعناه : مهما يكن من شيء بعد حمد الله . فنابت (أمّا) مناب أداة الشرط وفعله "[xlix] .
- " واعلم أنّ (أو) إذا وقع قبلها الاستفهام ، فيصح أن يكون بالهمزة وبغيرها من أدوات الاستفهام ، بخلاف (أم) عند بعضهم .. " [l] .
- وقال في (بل) : " ولا تُشرَّك في المعنى ، لأنّ الفعل لأحدهما دون الآخر وهو الثاني سواء كان الأول موجبًا أو منفيًا ، نحو : قامَ زيدٌ بل عمروٌ ، وما قامَ زيدٌ بل عمروٌ ؛ فالقيام في كلا الحالين للثاني دون الأول ، وإنْ ظهرت أداة النفي بعدها مع الفعل ، فيكون الإضراب عن النفي للأول وجعلُه للثاني ، نحو : ما قامَ زيدٌ بل ما قامَ عمروٌ " [li] .

يأخذ مفهوم (الأداة) في الاتضاح أكثر عند المرادي (ت 749 هـ) ، ففي مواضع من كتابه (الجنى الداني في حروف المعاني) يذكر مصطلح (الأداة) وجمعه (الأدوات) ويصرّح بما يندرج تحته من حروف ، وأسماء ، وأفعال . يقول :

- " خلا: لفظ مشترك، يكون حرفًا من حروف الجر وفعلاً متعديًا، وهي في كلا الحالين من أدوات الاستثناء ..."[lii] . وكلامه هذا يتكرر عند الحديث عن (عدا) [liii] .
- ويقول في حديثه عن (أم) : " ولكونها قد تخلو من الاستفهام دخلت على أدوات الاستفهام ما عدا الهمزة ، نحو : ٱآ لى ما مم نر نزنمَّوهو فصيح كثير ... " [liv] .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

- ويقول في موضع آخر عند حديثه عن (بَلَه) : " وعدّها الكوفيون والبغداديون من أدوات الاستثناء ، وأجازوا النصب بعدها على الاستثناء ، نحو : أكرمتُ العبيدَ بله الأحرارَ . رأوا ما بعدها خارجًا ممّا قبلها في الوصف ، فجعلوه استثناءً ، إذ المعنى أنّ إكرامكَ الأحرار يزيد على إكرامك العبيد " [lv] . فالأداة – كما هو واضح من أقوال المرادي – تتضمن الحرف ، والاسم ، والفعل .

وبوصولنا إلى كتاب (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) لابن هشام الأنصاري (ت 761 هـ) الذي يمثل قمة التأليف ونضجه في حقل الأدوات ، نجد أنّ مفهوم (الأداة) قد استقر واتضح ، غير أنّ المصطلح هذه المرة سيختلف ، فابن هشام يُطلق على الحرف وما تضمن معناه مصطلح (المفردات) لا (الأدوات) . يقول في مفتتح كتابه : " وأعني بالمفردات : الحروف وما تضمن معناها من الأسماء والظروف ، فإنّها المحتاجة إلى ذلك، وقد رتّبتها على حروف المعجم ليسهل تناولها ، وربّما ذكرتُ أسماءً غير تلك وأفعالاً لمسيس الحاجة إلى شرحها " [lvi] .

والحق أنّ مصطلح (المفردات) هذا تفرّد به ابن هشام – بحسب ما أعلم– ولم يتردد له صدى في دراسات أخرى . وما يهمنا في هذا المقام تجلية المفهوم لا المصطلح ، وهو مفهومٌ يتوافق مع سابقيه إلى حد بعيد .

ولا يعني ما سبق أنّ مصطلح (الأداة) لم يرد في (المغني) ، فقد أحصيتُ خمسة مواضع ذكر فيها ابن هشام هذا المصطلح ، وأشار في بعضها إلى الحروف وما تضمن معناها من الأسماء والظروف :

- يقول في حديثه عن (كيف) : " وتستعمل على وجهين : أحدهما أن تكون شرطًا فتقتضي فعلين متفقي اللفظ والمعنى غير مجزومين ، نحو : (كيفَ تصنع أصنع) ولا يجوز : (كيف تجلس أذهب) باتفاق ، ولا (كيفَ جلسْ أجلسْ) بالجزم عند البصريين إلاّ قطربًا ، لمخالفتها لأدوات الشرط بوجوب موافقة جوابها لشرطها كما مرّ .... " .[lvii] فـ (كيف) عندما تكون عنده من (أدوات الشرط) ، وهي اسم فهذا يعني أنّ الأداة تضم الاسم .
- ويقول في حديثه عن (ما) : " وتزاد بعد أداة الشرط ، جازمةً كانت نحو :أ(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُ جٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78)[lviii] ، (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (58)[lix]، أو غير جازمة نحو :أ(حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20)[lx] ، فـ (أين) من أدوات الشرط الجازمة ، وهي كذلك اسم.

- ويقول : " إذما : أداة شرط تجزم فعلين ، وهي حرفٌ عند سيبويه بمنزلة (إنْ) الشرطية ، وظرف عند المبرّد وابن السراج والفارسي ، وعملها الجزم قليل لا ضرورة خلافًا لبعضهم " [lxi] .

ختامًا .. يعرّف جلال الدين السيوطي الأدوات بقوله : " الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف " [lxii] ، ومن الأمثلة المعززة لهذا المفهوم لديه ، قوله في بداية حديثه عن النواسخ : " هذا مبحث الأدوات التي تدخل على المبتدأ والخبر ، فتنسخ حكم الابتداء ، وهي أربعة أنواع : كان وأخواتها ، وكاد وأخواتها ، وإنّ وأخواتها ، وظننتُ وأخواتها ، وما ألحق بذلك " [lxiii]. وهذا المثال عند السيوطي يُظهر بعض الأفعال مندرجًا تحت مفهوم (الأداة) .

ومن الباحثين من نسب تعريف السيوطي السابق بنصه لطاش كبري زاده (ت 968 هـ) في كتابه (مفتاح السعادة) . يقول الباحث / محمود أحمد الصغير في كتابه – المشار إليه سابقًا – : " ويبدو أنّ تعريف طاش كبري زاده (ت 968 هـ) خير ما ينسجم مع هذا الفهم وهو قوله : المراد بالأدوات : الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف " [lxiv] . وكذلك فعل الدكتور/ فخر الدين قباوة ورفيقه في مقدمة تحقيقهما لكتاب (الجنى الداني) إذ نسبا التعريف بنصه إلى كتاب (مفتاح السعادة) [lxv] . والأحق بهذا التعريف السيوطي ، لأنّه متقدمٌ زمنًا (ت 911 هـ) .

إنّ مجمل ما يمكن أن يقال في هذا المقام أنّ مفهوم (الأداة) قد تطور في تار خ النحو العربي ، فبدأ مرادفًا لـ (حرف المعنى) عند الكوفيين . ثم تطور بعد ذلك ليشير إلى : الحرف وما تضمن معناه من الاسم ، والفعل ، والظرف .ومصطلح (الأداة) بهذا المفهوم يجعل النحاة العرب متقدمين على غيرهم من اللغويين المعاصرين ، الذين رأوا في الأداة قسمين : أصلية تشمل حروف المعاني ، ومحولة تشمل الظرف ، والاسم ، والفعل[lxvi] .

المبحث الثالث : المصطلح بين الأوليّة والأحقيّة :

حاولت الدراسة في الصفحات السابقة تجلية مفهوم (الأداة) ، وتبيان المقصود به على وجه التحديد . وتحاول في هذه الصفحة وما بعدها الإجابة عن التساؤل التالي :من أين جاء مصطلح (الأداة) ؟ ومن أول من أطلقه واستخدمه ؟

المطلب الأول : أولية المصطلح :

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

نسب الدكتور / مهدي المخزومي مصطلح (الأداة) للكوفيين مقابل مصطلح (حروف المعاني) عند البصريين . قال : " وكان البصريون يسمونها حروف المعاني، لأنّ كل واحد منها يفيد معنى من المعاني ، كالاستفهام ، والابتداء ، والاستعلاء ، والمجازاة ، وغيرها .... وكان الكوفيون يسمونها أدوات ، لأنّ ـا أصبحت رموزًا مجردة ، لا تدل على معنى مستقل بحيث يمكن التعبير عنه أو ترجمته ، ولا يظهر معناها إلاّ إذا اتخذت لنفسها مكانًا معينًا في الجملة " [lxvii] .

ويعلّل في موضع آخر سبب التسمية بقوله : " وسمّى الكوفيون الحرف أداة لسببين فيما أظن ، الأول : المغايرة بين لفظ يُطلق على أحد حروف الهجاء ، ولفظ يطلق على أحد حروف المعاني . والثاني : أنّ الأدوات عندهم هي حروف المعاني ، كـ : هل ، وبل ، وهنّ أدوات يستعان بهنّ على التعبير عن الاستفهام والإضراب وغيرهما . فهم إذن أدق من البصريين في مصطلحهم هذا ، لأنّ الحرف يُطـق عند البصريين والكوفيين جميعًا ، ويراد به أحد حروف الهجاء ، أو أحد حروف المعاني ، بل قد يطلق على الكلمة أيضًا ، كما جاء في كلام سيبويه في مواضع كثيرة من الكتاب ، وحين يقول الكوفيون : أداة ، يكونون في غنى عن أن يخصصوا فيقولوا كما قال سيبويه : الكلمة : اسم ، وفعل ، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل " [lxviii] .

إذن فمصطلح (الأداة) عند الكوفيين – بحسب المخزو ـي – هو المقابل لمصطلح (حروف المعاني) عند البصريين . ولي ملحظٌ على هذا الرأي ؛ لأنّ (الأداة) بهذا المعنى سيقتصر مفهومها على الحرفية دون الاسمية والفعلية ؛ أي : سيقتصر مفهومها على الأداة الحرف دون الأداة الاسم والأداة الفعل . وهذا ما لم أجده عند تتبعي لمفهوم (الأداة) ، الذي أشار إلى : الحروف وما شاكلها من الأسماء ، والأفعال ، والظروف !!

ربما كان مفهوم الأداة بهذا المعنى المقابل للحرف من حروف المعاني عند الكوفيين خاصًا بحقبة زمنية مبكرة ، قبل استقرار المفهوم وثباته بدءًا من القرن السابع الهجري . وممّا يعزز هذا الرأي أنّ أبا عبد الله الطوال (ت 243 هـ) - وهو من أصحاب الكسائي - كان يعرّف الأداة بقوله : " الأداة : ما جاءت لمعنى ليس باسم و لا فعل " [lxix] . فقول الطوال هذا صريحٌ في أنّ (الأداة) عند الكوفيين هي الحرف من حروف المعاني ليس غير .

وبعيدًا عن مفهوم (الأداة) ، وبالعود إلى أولية المصطلح نتساءل : هل كان مصطلح (الأداة) حقًا مصطلحًا كوفيًا خالصًا ؟ وهل آثر الكوفيون هذا المصطلح على مصطلح (الحرف) ؟

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

إذا كانت (الأداة) مصطلحًا كوفيًا خالصًا ، فلم عدل عنه الكوفيون في بعض الاستعمالات ؟ لمَ أطلقوا على حروف الجر – مثلاً – مصطلح (حروف الإضافة) [lxx] ، أو (حروف الصفات) [lxxi] ؟ لمَ لمْ يصطلحوا عليها بـ : أدوات الإضافة أو الصفات ؟

إذا كان مصطلح (الأداة) قد ورد في مواضع متعددة من كتاب (معاني القرآن) للفراء[lxxii] إمام الكوفيين ، وإذا كان إمام الكوفيين قد اعتمد المصطلح واستعمله ، وليس غريبًا على أتباعه أن ينهجوا نهجه ويستعملوا مصطلحاته ، فلِمَ عدل الفراء عن هذا المصطلح إلى مصطلح (الحرف) في بعض المواضع ؟ لمَ قال في مو ع : " وربّما جمعوا بين ما ولا وإنْ التي على معنى الجحد ، أنشدني الكسائي في بعض البيوت (لا ما إنْ رأيتُ مثلك) فجمع بين ثلاثة أحرف " [lxxiii] . لمَ قال : ثلاثة أحرف ، ولم يقل : ثلاث أدوات ؟ لمَ قال في موضع آخر : " وقوله :ﭐ(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (6) [lxxiv] في موضع جزم، وإنْ فُرِق بين الجازم والمجزوم بـ (أحد) ، وذلك سهل في (إنْ) خاصة دون حروف الجزاء، لأنها شرط وليست باسم " [lxxv]. لمَ قال : حروف الجزاء ، ولم يقل : أدوات الجزاء ؟

إنّ القول بأحقية الكوفيين بمصطلح (الأداة) دون غيرهم قولٌ فيه نظر ، وإنّ الجزم بأنّ الكوفيين آثروا هذا المصطلح على مصطلح (الحرف) جزمٌ م ا بٌ للصواب ، وإنّ ما استقر في الأذهان من أنّ مصطلح (الأداة) مصطلحٌ كوفي ، لم يكن معروفًا قبل أن يستعمله الكوفيون مسألة تحتاج إلى مراجعة .

وقد تحدث عن هذا المصطلح الدكتور / إبراهيم السامرائي ، فقال : " الأداة : وهو مصطلح كوفي ، يقابله عند البصريين (الحرف) ، ويراد بذلك حروف المعاني على كثرتها واختلاف وظائفها " . وتوصل بعد التمثيل لآراء بعض علماء الكوفة إلى ما يلي : " ولا نعدم أن نجد الأداة معروفة لدى البصريين ، كما وردت في الأصول لابن السراج وفي سر صناعة الإعراب لابن جني ، وفي درة الغواص للحريري ، وغيرهم " [lxxvi] .

بل إنّ هذا المصطلح كان قد ورد عند علماء بصريين تقدموا على ابن السراج (ت 316 هـ) ، وابن جني (ت 392 هـ) ، والحريري (ت 516 هـ) لعلّ في مقدمتهم سيبويه (ت 185 هـ) ، وورد مصطلح (الأداة) عنده في موضع واحد ، هو : " وللقسم والمقسم به أدواتٌ في حروف الجر، وأكثرها الواو ثم الباء، يدخلان على كل محلوف به. ثمّ التاء، ولا تدخل إلاّ في واحد. وذلك قولك : والله لأفعلنّ ، و ـ لله لأفعلنّ، وتالله لأكيدنّ أصنامكم ..."[lxxvii]. وهذا القول ردٌ صريح

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

على كل من زعم أنّ مصطلح (الأداة) لم يرد في الكتاب ، ومنهم الدكتور / أبو السعود الشاذلي في كتابه (الأدوات النحوية وتعدد معانيها الوظيفية) الذي ذكر ما نصّه : " ولم يرد في كتاب سيبويه ذكرٌ لهذا المصطلح " وعلّق في الهامش قائلاً : " لأنّ الأداة مصطلح كوفي " [lxxviii] .

ويرد مصطلح (الأداة) أيضًا عند المبرد (ت 282 هـ) في مواضع عدة من كتابه المقتضب . يقول : " اعلم أنّ للقسم أدوات توّصل الحَلِف إلى المُقسَم به " [lxxix] . ويقول في موضع آخر : " واعلم أنّ للقسم تعويضات من أدواته تحل محلها ، فيكون فيها ما يكون في أدوات القسم " [lxxx] . ويقول في موضع ثالث : " فأمّا اللام فهي وُصْلة للقسم ، لأنّ للقسم أدوات تصله بالمقسم به ، ولا يتصل إلاّ ببعضها ، فمن ذلك اللام، تقول : والله لأقومنّ " [lxxxi] .

ويرد المصطلح كذلك عند الزجاجي (ت 340 هـ) في كتابه (حروف المعاني) حيث يقول : " عند : أداة لحضور الشيء ودنوه ، كقولك : كنتُ عند زيدٍ ، أي : بحضرته ، وكان هذا عند انتصاف النهار ، فتحتمل الزمان والمكان " [lxxxii] . والأداة في قول الزجاجي هذا مرادفةٌ للظرف ، ومعلومٌ أنّ مفهوم (الأداة) يشمل الحرف وما شاكله من الأسماء والأفعال والظروف.

إنّ هذا السرد يقودنا إلى نتيجة مفادها أنّ مصطلح (الأداة) لم يكن مصطلحًا كوفيًا خالصًا ، بل هو مصطلحٌ تردد عند علماء بصريين ، في مقدمتهم سيبويه والمبرّد ، ثمّ اشتُهِر عند الكوفيين ، وفي مقدمتهم الفراء ، فأُلصِق بهم . وهذا يعني أنّ مصطلح (الأداة) على كل حال مصطلحٌ عربيٌ م ـض . فهل حقًا كان ذلك ؟ وهل حقًا أنّ هذا المصطلح لم يفِد من مكان ما ؟

المطلب الثاني : الأداة مصطلح يوناني :

يطالعنا الفارابي الفيلسوف (ت 380 هـ) بمقولة غاية في الأهمية ، قد تنسف نسبة مصطلح (الأداة) للكوفيين والبصريين على حد سواء . وقد أُورِدت هذه المقولة في مقدمة كتابه (الحروف) ، ونصّها : " والحروف قسمة كبرى من أقسام القول والألفاظ الدالة ، وهي التي يسميها نحويو اليونان (أدوات) ، ونحويو العرب (حروف المعاني) ، أو الحروف التي وُضعتْ دالة على معانٍ " [lxxxiii] . وتكررت في شرحه على كتاب (العبارة) لأرسطو ، ونصّها في الشرح : " فهذا هو الذي تشترك فيه الأسماء والكلم ، وهو أنّ كل واحد منهما يدل بذاته وانفراده على معنى ما وطبيعة ، يصح معقولهُ في النفس من غير أن تحتاج لا الكلم ولا الأسماء إلى أن تقرن بغيرها من أجزاء القول . وإنّما قصد بهذا الفرق بين الأسماء والكلم ، وبين

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

أجزاء القول التي تُسمّى (الأدوات) ، ويسميها نحاة العرب (حروف المعاني) ، فنّ تلك ليست تدل على معنى أصلاً دون أنْ تقرن باسم ، أو كلمة ، أو بهما جميعًا ، وهي مضطرة في أنْ تدل على شيء إلى اسم أو كلمة ... " [lxxxiv].

إنّ هذا القول يشي لنا بأنّ مصطلح (الأداة) وجمعه (الأدوات) لم يكن مصطلحًا كوفيًا بحتًا ، ولم يكن مصطلحًا بصريًا أيضًا ، لأنّ نحاة اليونان استعملوه قبل النحاة العرب بزمن، والفارابي الفيلسوف يصعد بهذا المصطلح – بخاصة في قوله الثاني – إلى أرسطو عندما يشرح كتابه في العبارة .

والحق أنّ نسبة هذا المصطلح للفلاسفة لا يطالعنا في كتب الفلسفة والمنطق فقط ، بل يتعداها إلى كتب اللغويين ، فهذا ابن السيد البطليوسي (ت 521 هـ) ينقل عن الفارابي المقولة التالية : " وقال أبو نصر الفارابي في تحديد الحرف : الأداة : لفظ يدل على معنى مفرد ، لا يمكن أن يُفهم بنفسه وحده دون أنْ يُقرن باسم أو كلمة " . ويعقّب البطليوسي على قول الفارابي هذا بقوله : " وهذا تحديدٌ صحيح ، وهو نحو ما قاله سيبويه : إنّه جاء لمعنى في غيره ، ليس باسم ولا فعل .... " [lxxxv] .

إنّ تحديد الفارابي للحرف هو تحديدٌ فلسفي ، يستخدم فيه مصطلحًا فلسفيًا هو (الأداة) ويُعقِب هذا المصطلح الفلسفي بمصطلح فلسفي آخر هو (الكلمة) التي تقابل (الفعل) عند النحاة . والأداة بهذا المفهوم هي المقابل للحرف الذي يجيء لمعنى ، كما يظهر من قول البطليوسي ، وهو المفهوم ذاته الذي وجدناه عند الكوفيين ، ممّا يعني أنّهم أفادوا من نحاة اليونان مفهومًا ومصطلحًا .

والأداة بعدّها مصطلحًا فلسفيًا هي جزءٌ من تقسيم منطقي فلسفي يوناني للكلام ، تحدث عنه عددٌ من الباحثين ، منهم الدكتور / إبراهيم أنيس في كتابه (من أسرار اللغة) ، الذي قال في بداية حديثه عن أقسام الكلام: " قنع اللغويون القدماء بذلك التقسيم الثلاثي من : اسم ، وفعل وحرف ، متّبعين في هذا ما جرى عليه فلاسفة اليونان وأهل المنطق من جعل أجزاء الكلام ثلاثة سمّوها : الاسم ، والكلمة ، والأداة " [lxxxvi] .

ويظهر في هذا التقسيم مصطلح (الأداة) مقابل مصطلح (الحرف) عند النحاة ، ممّا يؤكد أنّه مصطلحٌ م تلبٌ من تراث الفلاسفة القدماء .

وقد يعترض معترضٌ بـنّ الفلاسفة والمناطقة القدماء كان لهم مصطلحٌ آخر في التعبير عن هذا المفهوم ، وهو (الرِّباط) وجمعه (الرِّباطات) . والإجابة عن هذا الاعتراض هي : نعم ، كان للفلاسفة والمناطقة مصطلح آخر قبل مصطلح (

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الأداة) هو (الرِّباط)، وقد تحدث عنه بإسهاب عددٌ من شرّاح كتاب (العبارة) لأرسطو، منهم ابن رشد (ت 595 هـ) في تلخيصه للعبارة [lxxxvii]، كما تحدث عنه عدد من الباحثين الذين عنوا بتراث أرسطو وتقسيمه للكلام [lxxxviii]، غير أنّ مصطلح (الرباط) هذا – كما يشير بعضهم – تطور في تراث الفلاسفة وكتبهم وتبدل ، لتستقر به التسمية على (الأداة) [lxxxix].

خاتمة :

حاول هذا البحث دراسة رحلة الأداة مفهومًا ومصطلحًا في النحو العربي دراسةً وصفية تحليلية ، وخلص في نهايته إلى النقاط التالية :

1. بدأ مفهوم الأداة في تاريخ النحو العربي كمرادف لـ (حرف المعنى) عند نحاة اليونان ، ومِن بعدهم الكوفيون ، ثم تطور بعد ذلك ليشير إلى : الحرف وما تضمن معناه من الاسم ، والفعل ، والظرف .ومصطلح (الأداة) بهذا المفهوم يجعل النحاة العرب متقدمين على غيرهم من اللغويين المعاصرين ، الذين رأوا في الأداة قسمين : أصلية تشمل حروف المعاني ، ومحولة تشمل الظرف ، والاسم ، والفعل .

2. إنّ القول بأحقية الكوفيين بمصطلح (الأداة) دون غيرهم قول فيه نظر ، وإنّ الجزم بأنّ الكوفيين آثروا هذا المصطلح على مصطلح (الحرف) جزمٌ م ا بٌ للصواب وإنّ ما استقر في الأذهان من أنّ مصطلح (الأداة) مصطلحٌ كوفي ، لم يكن معروفًا قبل أن يستعمله الكوفيون مسألة تحتاج إلى مراجعة ، لأنّ نحاة اليونان استعملوه قبل النحاة العرب بزمن ، والفارابي الفيلسوف يصعد بهذا المصطلح إلى أرسطو عندما شرح كتابه في العبارة .

الهوامش :

69

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com